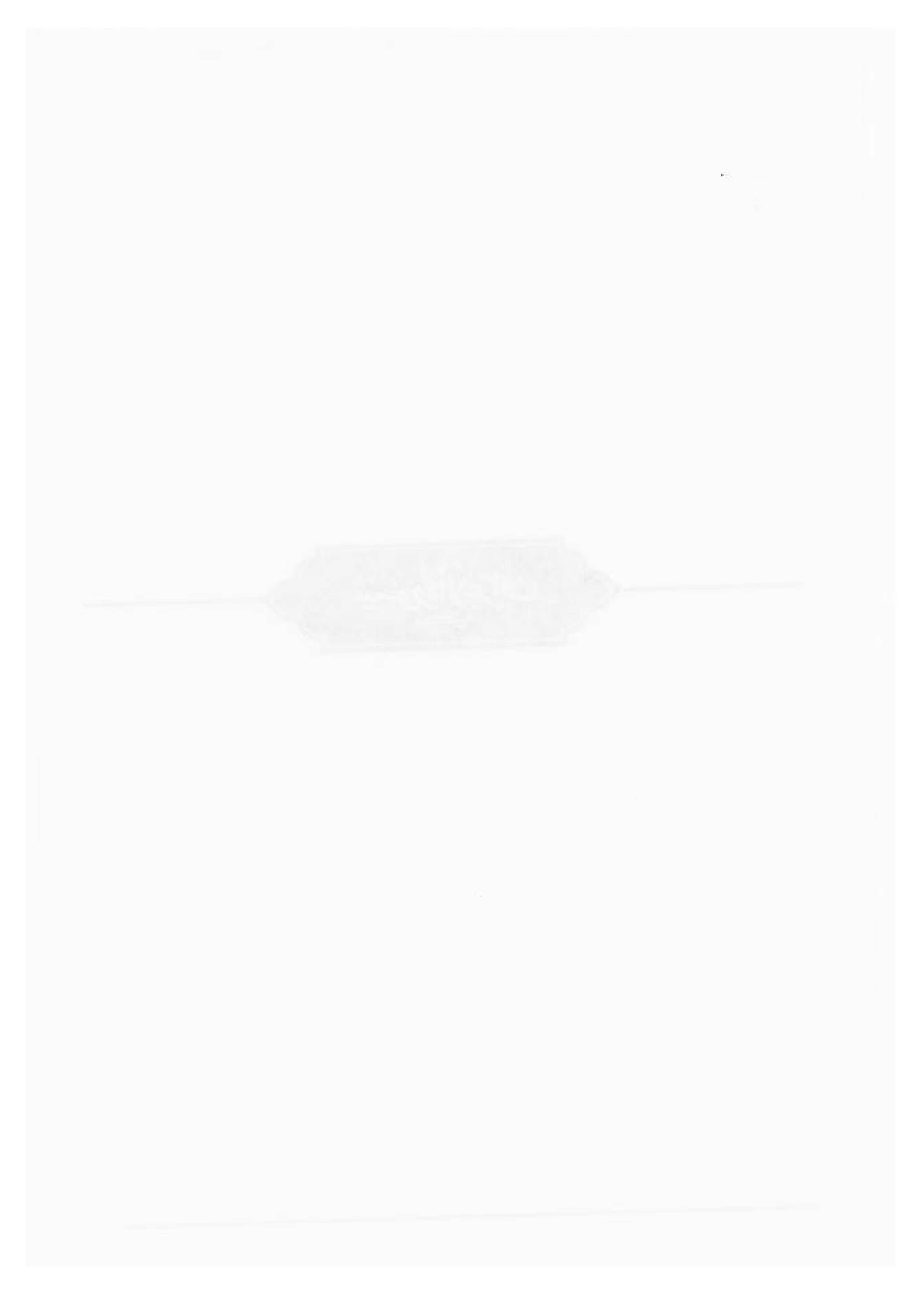

سورة الأعراف (٧)
مكية



قبل أن نبدأ خواطرنا فى سورة الأعراف لابد أن نلاحظ ملاحظة دقيقة فى كتاب الله ، الله يقول :

﴿ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

(من الآية ١٦٥ سورة الأنعام)

ونقرأ الكلمة الأخيرة فى سورة الأنعام « رحيمٌ » ، ونجدها مبنية على الوصل ؛ لأن آيات القرآن كلها موصولة ، وإن كانت توجد فواصل آيات ، إلا أنها مبنية على الوصل ، ولذلك تجد ﴿ غفور رحيم ﴾ وعليها الضمة وبجوارها ميم صغيرة ؛ لأن التنوين إذا جاء بعده باء ، يقلب التنوين ميماً ، فالميم الصغيرة موجودة على رحيم ، قبل أن تقرأ ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ ، وتصبح القراءة :

« غفور رحيم » « بسم الله » .

وكل آيات القرآن تجدها مبنية على الوصل ، فكأن القرآن ليس أبعاضاً . وكان من الممكن أن يجعلها سكوناً ، وأن يجعل كل آية لها وقف ، لا ، إنه سبحانه أراد القرآن موصولاً ، وإن كان فى بعض الآيات إقلاب ، وفى بعضها إدغام ، وهذا بغُنَّة ، وهذا بغير غُنَّة ، ويقول الحق :



﴿ الٓمٓصٓ ۝١ ﴾

وفى هذه الآية فصل بين كل حرف ، فنقرأها : « ألف » ثم نسكت لنقرأ « لام » ثم نسكت لنقرأ « ميم » ثم نسكت لنقرأ « صاد » . وهنا حروف خرقت القاعدة لحكمة ؛ لأن هذه حروف مقطعة ، مثل « الم ، حم ، طه ، يس ، ص ، ق ، وكلها مبنية على السكون مما يدل على أن هذه الحروف وإن خيل لك أنها كلمة واحدة ، لكن لكل حرف منها معنى مستقل عند الله ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« من قرأ حرفاً من كتاب الله فله حسنةٌ ، والحسنة بعشر أمثالها ، لا أقول ألم حرف ، ولكن أَلِفٌ حرف ، ولامٌ حرف ، ومِيمٌ حرف »[1] .

والرسول ﷺ أشار إلى أن هذه الحروف بها أمور استقلالية ، ولا تكون كذلك إلا إذا كانت لها فائدة يحسن السكوت والوقوف عليها ، فهمها من فهمها ، وتعبد بها من تعبد بها ، وكل قارئٌ للقرآن يأخذ ثوابه بكل حرف ، فلو أن قارئاً قال : « أعوذ بالله من الشيطان الرجيم » ونطق بعد ذلك بحرف أو بأكثر ، فهو قد أخذ بكل حرف حسنة ، وحين نقرأ بعضاً من فواتح السور ، نجد أن سورة البقرة تبدأ بقوله الحق :

﴿ الٓمٓ ۝١ ﴾

(سورة البقرة)

ونقرأ هنا في أول سورة الأعراف :

﴿ الٓمٓصٓ ۝١ ﴾

(سورة الأعراف)

وهي حروف مقطعة . نطقت بالإسكان ، وبالفصل بين كل حرف وحرف . ويلاحظ فيها أيضاً أنها لم تقرأ مسميات ، وإنما قُرئت أسماء ، ما معنى مسميات ؟ وما معنى أسماء ؟ . أنت حين تقول : كتب ، لا تقول « كاف » « تاء » « باء » ، بل تنطق مسمى الكاف كَ ، واسمها كاف مفتوحة ، أما مسماها فهو « كَ » . إذن فكل حرف له مسمى ، أي الصوت الذي يقوله الإنسان ، وله اسم ، والأمي ينطق المسميات ، وإن لم يعرف أسماءها . أما المتعلم فهو وحده الذي يفهم أنه حين يقول : « كتب » أنها مكونة من كاف مفتوحة ، وتاء مفتوحة ، وباء مفتوحة ، أما الأمي فهو لا يعرف هذا التفصيل .

وإذا كان رسول الله قد تلقى ذلك وقال : ألف لام ميم ، وهو أمي لم يتعلم . فمن قال له انطق مسميات الحروف بهذه الأسماء ؟ .

---

(١) رواه الترمذي ، والدارمي .

لابد أنه قد عُلِّمَهَا وتلقاها ، والحق هو القائل :

﴿ فَإِذَا قَرَأْنَـٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ﴾ [سورة القيامة]

فالذى سوف تسمعه يا محمد ستقرأه ، ولذلك تجد عجائب ؛ فأنت تجد «ألم» فى أول البقرة ، وفى أول سورة آل عمران ، ولكنك تقرأ الآية الأولى من سورة الفيل :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَـٰبِ ٱلْفِيلِ ﴿١﴾ ﴾ [سورة الفيل]

ما الفرق بين الألف واللام والميم فى أول سورة البقرة ، وسورة آل عمران وغيرهما ، والحروف نفسها فى أول سورة الفيل وغيرها كسورة الشَّرْح ؟ أنت تقرأها فى أول سورة البقرة وآل عمران أسماء . وتقرأها فى أول سورة الفيل مسميات . والذى جعلك تفرق بين هذه وتلك أنك سمعتها تقرأ فى أول البقرة وآل عمران هكذا ، وسمعتها تقرأ فى أول سورة الفيل هكذا . إذن فالقراءة توقيف ، وليس لأحد أن يجترىء ليقرأ القرآن دون سماع من معلم . لا ، لابد أن يسمعه أولاً حتى يعرف كيف يقرأ .

ونقرأ «الٓمٓصٓ» فى أول سورة الأعراف ، وهى حروف مقطعة ، ونعرف أن الحروف المقطعة ثمانية وعشرون حرفاً ، ونجد نصفها أربعة عشر حرفاً فى فواتح السور ، وقد يوجد منها فى أول السورة حرف واحد مثل :

﴿ قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ﴿١﴾ ﴾ [سورة ق]

وكذلك قوله الحق :

﴿ صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴿١﴾ ﴾ [سورة ص]

وكذلك قوله الحق :

﴿نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ①﴾

[سورة القلم]

ومرة يأتى من الحروف المقطعة اثنان ، مثل قوله الحق :

﴿حمٓ ①﴾

[سورة الأحقاف]

ومرة تأتى ثلاثة حروف مقطعة مثل :

﴿الٓمٓ ①﴾

[سورة البقرة]

ومرة يأتى الحق بأربعة حروف مقطعة مثل قوله الحق :

﴿الٓمٓصٓ ①﴾

[سورة الأعراف]

ومرة يأتى بخمسة حروف مقطعة مثل قوله الحق :

﴿كٓهيعٓصٓ ①﴾

[سورة مريم]

وإذا نظرت إلى الأربعة عشر حرفاً وجدتها تمثل نصف الحروف الأبجدية ، وهذا النصف فيه نصف أحكام الحروف ، فبعضها منشور ، أو مهموس ، أو مخفى ، أو مستعلٍ ، ومن كل نوع تجد النصف ، مما يدل على أنها موضوعة بحساب دقيق ، ومع أن توصيف الحروف ، من مستعل ،أو مفخم ،أو مرقق ، أو منشور ، أو مهموس ، هذا التوصيف جاء متأخراً عن نزول القرآن ، ولكن الذى قاله يعلم ما ينتهى إليه خلقه فى هذه الحروف المقطعة وله فى ذلك حكمة ، وكان رسول الله ﷺ أميًا ، ولم يجلس إلى معلم ،فكيف نطق بأسماء الحروف، وأسماء الحروف لا يعرفها إلا من تعلم؟!فهو إذن قد تلقنها،وإننا نعلم أن القرآن جاء متحديًا العرب؛ليكون معجزة لسيد الخلق،ولا يُتَحَدَّى إلا من كان بارعاً فى هذه الصنعة .وكان العرب مشهورين بالبلاغة،والخطابة

والشعر، والسجع وبالأمثال؛ فهم أمة كلام، وفصاحة، وبلاغة، فجاء لهم القرآن من جنس نبوغهم، وحين يتحدى الله العرب بأنه أرسل قرآناً لايستطيعون أن يأتوا بمثله، فالمادة الخام - وهى اللغة - واحدة، ومن حروف اللغة نفسها التى برع العرب فيها. وبالكلمات نفسها التى يستعملونها، لكنهم عجزوا أن يأتوا بمثله؛ لأنه جاء من رب قادر، وكلام العرب وبلاغتهم هى من صنعة الإنسان المخلوق العاجز.

وهكذا نعلم سر الحروف المقطعة التى جاءت لتثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تلقى القرآن من الملأ الأعلى لأنه أمى لم يتعلم شيئاً، لكنه عرف أسماء الحروف، ومعرفة أسماء الحروف لايعرفها - كما قلت - إلا المتعلم، وقد علمه الذى علم بالقلم وعلم الإنسان مالم يعلم، ويمكن للعقل البشرى أن يحوم حول هذه الآيات، وفى هذه الحروف معان كثيرة، ونجد أن الكثيرمن المفكرين والمتدبرين لكلام الله وجدوا فى مجال جلالٍ وجمال القرآن الكثير، فتجد متصوفاً يقول إن «المص» جاءت هنا لحكمة، فأنت تنطق أول كلمة ألف وهى الهمزة من الحلق، واللام تنطقها من اللسان، والميم تنطقها من الشفة، وبذلك تستوعب مخارج الحروف من الحلق واللسان والشفة.

قال المتصوف ذلك ليدلك على أن هذه السورة تتكلم فى أمور الحياة بدءاً للخلق من آدم. إشارة إلى أولية خلق الإنسان، ووسطاً وهو المعاش، ونهاية وهوالموت والحساب ثم الحياة فى الدار الأخرة، وجاءت «الصاد» لأن فى هذه السورة قصص أغلب الأنبياء.

هكذا جال هذا المتصوف جولة وطلع بها، أنردها عليه؟ لانردها بطبيعة الحال، ولكن نقول له: أذلك هو كل علم الله فيها؟. لا؛ لأن علينا أن نتعرف على المعانى التى فيها وأن نأخذها على قدر بشريتنا، ولكن إذا قرأناها على قدر مراد الله فيها فلن نستوعب كل آفاق مرادات الله؛ لأن أفهامنا قاصرة.

ونحن البشرنضع كلمات لامعنى لها لكى تدل على أشياء تخدم الحياة، فمثلا نجد فى الجيوش من يضع «كلمة سر» لكل معسكر فلا يدخل إلا من يعرف

الكلمة. من يعرف «كلمة السر» يمكنه أن يدخل. وكل كلمة سر لها معنى عند واضعها، وقد يكون ثمنها الحياة عند من يقترب من معسكر الجيش ولا يعرفها.

﴿الٓمٓصٓ ۝١﴾ [سورة الأعراف]

ونجد بعد هذه الحروف المقطعة حديثاً عن الكتاب، فيقول سبحانه:

﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٢﴾

وساعة تسمع «أنزل» فافهم أنه جاء من جهة العلو أى أن التشريع من أعلى. وقال بعض العلماء: وهل يوجد فى صدر رسول الله حرج؟. لننتبه أنه ساعة يأتى أمر من ربنا ويوضح فيه ﴿فَلا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ﴾، فالنهى ليس لرسول الله (ﷺ) وإنما النهى للحرج أو الضيق أن يدخل لرسول الله، وكأنه سبحانه يقول: يا حرج لا تنزل قلب محمد.

لكن بعض العلماء قال: لقد جاء الحق بقوله سبحانه: ﴿فَلا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ﴾؛ لأن الحق يعلم أن محمداً قد يضيق صدره ببشريته، ويحزن؛ لأنهم يقولون عليه ساحر، وكذاب، ومجنون. وإذا ما جاء خصمك وقال فيك أوصافاً أنت أعلم منه بعدم وجودها فيك فهو الكاذب؛ لأنك لم تكذب ولم تسحر، وتريد هداية القوم، وقوله سبحانه: ﴿فَلا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ﴾ قد جاء لأمر من اثنين: إما أن يكون الأمر للحرج ألا يسكن صدر رسول الله، وإما أن يكون الأمر للرسول طمأنة له وتسكينا، أى لا تتضايق لأنه أنزل إليك من إله، وهل ينزل الله عليك قرآناً ليصبح منهج خلقه وصراطاً مستقيماً لهم، ثم يسلمك إلى سفاهة هؤلاء؟ لا، لا يمكن، فاطمئن تماماً.

﴿.. فَلا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٢﴾ [سورة الأعراف]

والإنذار لا يكون إلا لمخالف ؛ لأن الإنذار يكون إخباراً بشرٍ ينتظر من تخاطبه . وهو أيضاً تذكير للمؤمنين مثلما قال من قبل فى سورة البقرة : ﴿ هدى للمتقين ﴾ .

وهنا نلاحظ أن الرسالات تقتضى مُرْسِلاً أعلى وهو الله ، ومُرْسَلاً وهو الرسول ، ومُرْسَلاً إليه وهم الأمة ، والمرسَل إليه إما أن يستمع ويهتدى وإما لا ، وجاءت الآية لتقول : ﴿كتاب أنزل ﴾ من الله وهو المرسِل ، و «إليك » لأنك رسول والمرسَل إليهم هم الأمة ، إما أن تنذرهم إن خالفوا وإما أن تذكرهم وتهديهم وتعينهم أو تبشرهم إن كانوا مؤمنين .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ ﴾

ومادام العباد سينقسمون أمام صاحب الرسالة والكتاب الذى جاء به إلى من يقبل الهداية ، ومن يحتاج إلى النذارة لذلك يقول لهم :

﴿ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ﴾

(من الآية ٣ سورة الأعراف)

وينهاهم عن الشرك وعدم الاستهداء أى طلب الهداية فيقول :

﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾

(من الآية ٣ سورة الأعراف)

وحينما يأتى الحق سبحانه فى مثل هذه الآيات ويقول : « وذكرى » . أو « وذكّر » إنما يلفتنا إلى أن الفطرة المطبوع عليها الإنسان مؤمنة ، والرسالات كلها لم تأت لتنشئ إيماناً جديداً ، وإنما جاءت لتذكر بالعهد الذى أخذ علينا أيام كنا فى عالم الذر ، وقبل أن يكون لنا شهوة اختيار :